تعليق على عوامل نشأة علم الكلام

كانت نشأة علم الكلام وليدة لتلك العوامل التى ذكرناها ٠٠ وذلك أننا لو رجعنا إلى الموضوعات التى خاض فيها المتكلمون والتى تكون موضوع علم الكلام فإننا سوف نجد أن كل مبحث من المباحث الكلامية كان له ما يبرره ٠٠ وأنه كان نتيجة لأسباب أدت إلى قيامه ٠٠ وسوف نشير فيما يلى إلى أهم المباحث الكلامية التى كانت نتيجة لتلك العوامل ٠

لقد افتتح المتكلمون مصنفاتهم بالحديث عن المعرفة وطريقها ابتداء من الماتريدى فى كتابه التوحيد والباقلانى فى التمهيد وغيرهما ٠٠ وذلك ليؤكدوا صدق المعرفة الخبرية خاصة التى تأتى عن طريق الرسل ٠٠ وذلك للرد على السمنية الذين ينكرون المعرفة الخبرية والشكاك والسوفسطائية ٠

اهتم المتكلمون بإثبات حدوث العالم ٠٠ لأن الحدوث عندهم أساس إثبات المحدث للعالم وهو الله تعالى ٠٠ وهم فى هذا يردون على القائلين بقدم العالم أو المنكرين لخلق الله تعالى للعالم من الدهرية ، ولقد قام المتكلمون بالرد على أهل الطبائع لإثبات حدوث العالم وإثبات الصانع له ٠

وكان إثبات الوحدانية لله تعالى موجها للثنوية على اختلاف فرقها ٠٠ القائلين بإلهين أحدهما للنور والآخر للظلمة ٠٠

والبحث فى إثبات التنزيه لله تعالى ونفى التشبيه أو التجسيم أو ما يوحى بذلك كان رد فعل لصورة الإله كما قال به اليهود وإضافتهم لله تعالى صورة بشرية ٠

وقد كان البحث فى صفات الله تعالى وعلاقتها بذاته تعالى ٠٠ هل هى عين الذات أم غير الذات ؟ ٠٠ كانت نتيجة لأصول العقيدة المسيحية فى القول بالجوهرية والأقنومية ٠٠ وقد أدى إلى بحث المتكلمين فى الجوهر والعرض وإلى إثبات أن الله ليس جوهرا أو عرضا ، بل هو موجود فوق الجوهر والعرض ٠

ومناقشة فكرة الأقانيم الثلاثة وإبطالها وفكرة التجسد والاتحاد ومعارضتها وإثبات أن المسيح عبد مخلوق ·

ولقد نشأ عن الخلاف بين المسيحية والإسلام أهم مشكلة كلامية وهى مشكلة « كلام الله » وهل هو قديم أم محدث مخلوق ؟ ، ولقد اتخذ المعتزلة موقفا متشددًا إزاء هذه المسألة فقالوا بخلق القرآن « كلام الله » وذلك حتى لا يتشابه القول بقدم الكلام الإلَهى بقول النصارى بقدم المسيح وهو كلمة الله ·· وجعلوا القول بخلق الكلام الإلَهى عقيدة رسمية للدولة فى عهد المأمون ·· وأنكر الحنابلة وصف القرآن بأنه مخلوق وكانت فتنة بين المسلمين ومحنة للحنابلة ولقد دلل المتكلمون - والمعتزلة منهم على الخصوص - على معنى مغاير تماما لما يفهمه المسيحيون من « الكلمة » فهى لا تنطوى بحال ما على الألوهية والأزلية ولا تتضمن وجودا للمسيح سابقا على مولده [1] .

ولقد كان مبحث النبوة وإثباتها للرد على منكرى النبوة من الصابئة والبراهمة وإثبات نبوة محمد ﷺ للرد على المنكرين لنبوته من اليهودية والمسيحية ··

وأيضا كان مبحث عصمة الأنبياء رد على ما أضافه اليهود للأنبياء من نقائص وذنوب ونفيهم العصمة للأنبياء ·

وكان البحث فى موضوع الإيمان وما يتصل به من مسائل نتيجة للأحداث السياسية الداخلية التى حدثت فى المجتمع الإسلامى وأدت إلى انقسامات وحروب وفتن بين المسلمين ·· وتكفير الخوارج لمخالفيهم وإرجاء المرجئة للحكم على مرتكبى الذنوب مما أدى إلى البحث عن حقيقة الإيمان والموقف من مرتكبى الذنوب خاصة الكبائر ·

أيضا كان البحث فى مسألة المعاد وإثباته للرد على القائلين بالتناسخ من البوذية وغيرهم ·· وبالنسبة لمبحث الجبر والاختيار فقد رأينا أن هذا المبحث يطرحه العقل البشرى ذاته ·· وأن هذا المبحث ليس قاصرا على الإسلام

(١) د · أحمد صبحى ، فى علم الكلام ، ص ٤٣ ·

فحسب بل لقد أثير فى مختلف الديانات ٠ ٠ ويمكن القول أيضا إنه أثير بسبب تحديد المسئولية الفردية وإنكار تحمل الإنسانية على مدى آلاف السنين خطيئة آدم ٠٠ فهى رد فعل لقول المسيحية بفكرة الخلاص والفداء ٠

وقد هاجم البعض قيام علم الكلام واتخذوا من القرآن الكريم دليلا على عدم الحاجة إلى ذلك العلم ٠٠ فدافع المتكلمون عن ذلك الاتهام واتخذوا من القرآن أسسا لأدلتهم ، ومبررا لقيام العلم ٠٠ وبينوا أن القرآن يدعو للنظر والبحث والتأمل ٠٠ وأن ما خاضوا فيه من أبحاث لم يكن منهيا عنه فى القرآن ٠٠ بل كان القرآن الكريم داعيا ومساندا لتلك الأبحاث التى تقوم على الاستدلال العقلى على صحة العقائد الايمانية ٠٠ وعلى هذا يمكن القول بأن المتكلمين قد وجدوا فى القرآن سندا لأبحاثهم ومبررا لقيام علم الكلام ٠

وبالنسبة لعامل الترجمة : فإنه تمثل فى الاشتغال فى المباحث المنطقية والفلسفية وذلك للتسلح بسلاح الخصوم ومعرفة أوجه استدلالاته العقلية ٠٠ والتفوق عليه وإبطال استدلالاته ٠

وقد كانت هذه العوامل مجتمعة سببا فى قيام علم الكلام الذى حاول أن يقيم الأدلة العقلية على صحة العقائد الإيمانية وذلك ليدحض أقوال وأدلة الخصوم ولم تكن تلك المهمة الدفاعية هى التى قام بها علم الكلام فحسب ، بل قام أيضا بتوضيح أصول العقيدة ٠

وأدى قيام علم الكلام بمهمة الدفاع عن العقيدة وتوضيحها إلى الخوض فى مسائل فرعية وموضوعات جرتهم إليها مناقشات الخصوم ٠٠ ولقد كان لدخولهم فى تلك التفصيلات والتفريعات سببا فى معارضة البعض لعلم الكلام واتخاذ مواقف معارضة أو مشككة فى جدوى هذا العلم واختلفت المواقف بذلك من هذا العلم بين مؤيد ومعارض وحذر واحتياط وسوف نتناول هذه المواقف فيما يلى :

● **الموقف من علم الكلام قديما وحديثا :**

اختلفت المواقف بإزاء علم الكلام بين مؤيد له ومعـــارض وآخذ منه بقدر ، ونعرض إجمالا لهذه المواقف :

المؤيدون : نجد فريقا من المسلمين أيد الاشتغال بعلم الكلام ٠٠ ويقف على رأس هؤلاء المؤيدين المتكلمين أنفسهم ٠٠ وهؤلاء رأوا ضرورة النظر فى أصول الدين وإثباتها بالعقل ٠٠ إذ أن الإيمان القائم على العقل أقوى من الإيمان الذى يقوم على التقليد ٠٠ وساقوا الأدلة والبراهين على صحة موقفهم وأشاروا إلى ضرورة النظر فى مصنفاتهم،بل وأفرد بعضهم كتبا خاصة لأهمية النظر ٠٠ ونذكر على سبيل المثال استهلال الماتريدى كتابه التوحيد ببيان أن سبيل معرفة الدين تتم بالنظر بجانب العقل ٠٠ وفى ثنايا كتابه الضخم تأويلات أهل السنة فى مواضع كثيرة تأييد لاستخدام النظر فى الدين ٠٠ بل إن هذا الكتاب يقوم على أساس هذه الفكرة ٠٠ ونجد للأشعرى كتاب استحسان الخوض فى علم الكلام يبين فيه ضرورة النظر فى الدين ٠٠ وأن النظر مأمور به وليس منهيا عنه ، ومن بعده نجد الأشاعرة أمثال الباقلانى والجوينى وغيرهما من أتباع هذا المذهب يوضحون أهمية النظر فى الدين٠٠وفى فريق المعتزلة نجد دعوة واضحة وصريحة لأهمية النظر٠٠بل تقديمه على السمع٠٠إذ عليه يتوقف صحة السمع٠٠ونجد ذلك فى مؤلفاتهم كما ذكرها القاضى عبد الجبار فى «المحيط بالتكليف»و«شرح الأصول الخمسة» وأفرد جزءا من كتابه «المغنى» بعنوان «النظر والمعارف»على بيان أهمية النظر وأنه أول الواجبات على المكلف٠

ولقد قدم هذا الفريق أدلته العقلية والنقلية ونوجز هذه الأدلة فيما يلى كما ذكرها الايجى فى المواقف :

الأول : الترقى من حضيض التقليد إلى ذروة الايقان ﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** ﴾ (١) وأن إيمان المستدل أقوى من إيمان المقلد الذى يكون عرضة للشكوك ٠٠ ولا يستطيع دفع تلك الشكوك لأنه لا يملك الدليل على صحة إيمانه ٠

الثانى : إرشاد المسترشدين بإيضاح الحجة وإلزام المعاندين بإقامة الحجة ٠

الثالث : حفظ قواعد الدين عن أن تزلزلها شبه المبطلين ٠

---

(١) المجادلة : ١١

الرابع : أنه يبنى عليه العلوم الشرعية فإنه أساسها وإليه يؤول أخذا واقتباسًا ·

الخامس : صحة النية والاعتقاد ·· إذ بها يرجى قبول العمل وغاية ذلك كله الفوز بسعادة الدارين ·

وهذا الفريق يرى أن علم الكلام هو أعلى مرتبة فى العلوم ·· إذ أن موضوعه أعم الأمور وأعلاها وغايته أشرف الغايات وأجداها ودلائله يقينية يحكم بها صريح العقل ·· وقد تأيدت بالنقل وهى الغاية فى الوثاق وهذه هى جهات شرف العلم لا تعدوها ·· فهو إذن أشرف العلوم (١) ·

واستند هذا الفريق إلى ما ورد فى القرآن الكريم فى أكثر من موضع فى الحث على النظر ·· وإقامة البرهان والدليل ·· والتماس العلم والبعد عن الظن ·

ويقابل هذا الفريق المؤيد لقيام علم الكلام فريقا آخر يعارض قيامه ، ويرى أن فى الاشتغال فيه مضرة بالغة وأن الدين قد نهى عنه ·· وإلى التحريم ذهب الأئمة مالك وأبو حنيفة والشافعى وأحمد بن حنبل وجميع أهل الحديث من السلف ·

أما الإمام مالك فقد قال : لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء ·· وقال بعض أصحابه : أراد بأهل الأهواء أهل الكلام ·· على أى مذهب كانوا ·· ونبه مالك إلى مضرة الجدل فى الدين وأن يكون سبيل معرفة الدين طريق الجدل ·· فيقول رحمه الله : أرأيت إن جاءه من هو أجدل منه ؟ · أيدع دينه كل يوم لدين جديد ؟ يعنى أن أقوال المتجادلين تتفاوت (٢) فالجدل بذلك يؤدى إلى الفرقة والانقسام فى الدين ·

أما موقف أبو حنيفة فلقد نهى ابنه حماد عن الاشتغال بالكلام وقد قال

---

(١) الايجى ، المواقف ، ص ٨

(٢) الغزالى ، إحياء علوم الدين ، جـ ١ ص ٩٥ ، وأيضا طاش كبرى زادة ، مفتاح السعادة ، جـ ٢ ص ١٥٦

حماد : رأيتك وأنت تتكلم فما بالك تنهانى ؟ فقال : يا بنى كنا نتكلم وكل واحد منا كان على رأسه الطير مخافة أن يزل صاحبه ، وأنتم اليوم تتكلمون . . كل واحد يريد أن يزل صاحبه، ومن أراد أن يزل صاحبه فكأنه أراد أن يكفر ، ومن أراد أن يكفر صاحبه فقد كفر قبل أن يكفر صاحبه[1].

وأبو حنيفة : هنا ينبه إلى عله تحريم علم الكلام وهى لا ترجع إلى طبيعة الكلام ذاته بل ترجع إلى سوء استخدام المتكلمين للجدل . . إذ يصبح الجدل غاية فى ذاته ولا يكون سبيلا موصلا إلى الحقيقة . . بل سبيل إفحام الخصم وتكفيره . . وهذا بدوره أيضا يؤدى إلى حدوث الفتنة والفرقة بين جماعة المؤمنين .

والشافعى : كان أكثر نكيرا على المتكلمين . . حتى أنه يجعل الاشتغال بعلم الكلام من أعظم الكبائر فيقول : « لأن يلقى الله عز وجل العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير من أن يلقاه بشىء من علم الكلام » فهو يلى الشرك من حيث عظم الذنوب وأشدها . . والشافعى كان سىء الظن بعلم الكلام وبسوء نتائجه فقال محذرا من الاشتغال به : « لو علم الناس ما فى الكلام من الأهواء لفروا منه فرارهم من الأسد » وأفتى بأن يضرب أصحاب الكلام بالجريد . . ويطاف بهم فى القبائل والعشائر ويقال : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ فى الكلام [2] .

والشافعى بذلك يرى فى علم الكلام خروج عن الكتاب والسنة أو استهانة بهما وترك لهما ولكن يذكر ابن عساكر أن كراهية الشافعى لعلم الكلام لا تنصرف إليه كعلم وإنما تنصرف إلى كلام القدرية وأهل الأهواء والبدع . . بل ويروى أنه قد ناقش هؤلاء وأبطل أدلتهم وبلغ فى علم الكلام مبلغا عظيما .

---

(١) طاش كبرى زادة ، مفتاح السعادة ، جـ ٢ ص ١٥٤ ، وفى هذه الدراسة سنخصص حديثا مستقلا عن آراء أبى حنيفة الكلامية .

(٢) الغزالى ، الإحياء ، جـ ١ ص ٩٥

ولم يكن الإمام أحمد بن حنبل أقل من سابقيه من الفقهاء فى ذم علم الكلام فلقد قال : لا يفلح صاحب الكلام أبدا ولا تكاد ترى أحدا نظر فى الكلام إلا وفى قلبه دغل .. وبالغ فى ذم هذا العلم حتى هجر الحارث المحاسبى مع زهده وورعه بسبب تصنيفه كتابا فى الرد على المبتدعة وقال له : ويحك ، لست تحكى بدعتهم أولا ثم ترد عليهم ؟ ألست تحمل الناس بتصنيفك على مطالعة البدعة والتفكر فى تلك الشبهات فيدعوهم ذلك إلى الرأى والبحث ، بل لقد كان ابن حنبل أكثر تشددا من سابقيه فأفتى بأن علماء الكلام زنادقة (١) .

ويمكننا أن نوجز موقف المعارضين فى عدة نقاط :

أولا : إن أصحاب هذا الرأى يرون أن فى الكتاب والسنة الغنى عن كل مصدر آخر لمعرفة الله عز وجل وإثبات توحيده وصفاته وأسمائه الحسنى .. وأن الكتاب قد نزل فيه تبياناً لكل شىء .. وأن الرسول قد قام بالتبليغ .. ولقد نزل قوله تعالى مبينا إتمام الدين ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ** ﴾(٢) ومعلوم أن أمر التوحيد وإثبات الصانع لا تزال الحاجة ماسة إليه أبدا فى كل وقت ومكان ، ولو أخر عن البيان لكان لكل التكليف واقعاً بما لا سبيل للناس إليه .. وذلك فاسد غير جائز (٣) وعلى هذا فإن الله تعالى قد استوفى أصول الدين فى الكتاب ووضحها الرسول وبذا لم يكل الناس إلى عقولهم فى شىء من الدين .

ثانيا : إن أصحاب هذا الرأى آثروا الوقوف على ما كان عليه الصحابة والتابعون من عزوف عن البحث والنظر فى الدين فإنهم يرون أن النظر العقلى فى أصول الدين لو كان خيرا لما فات النبى ﷺ وأصحابه ولتكلموا فيه .. وقالوا إن الأمر لا يخلو من وجهين : إما أن يكونوا علموه فسكتوا عنه أو لم يعلموه بل جهلوه .. فإن كانوا علموه ولم يتكلموا فيه وسعنا نحن السكوت

---

(١) الغزالى ، الإحياء ، جـ ١ ص ٩٥ .

(٢) المائدة ٣ . (٣) السيوطى ، صون المنطق ، جـ ١ ص ١٤١ .

عنه كما وسعهم السكوت عنه ووسعنا ترك الخوض كما وسعهم ترك الخوض فيه لأنه لو كان من الدين ما وسعهم السكوت عنه - وإن كانوا لم يعلموه وسعنا جهله كما وسع أولئك جهله [1] .

ثالثا : ما يتولد من استخدام علم الكلام من شر .. وذلك كخشية الفتنة بسبب استخدام المصطلحات الكلامية التى لم يأت بها الكتاب والسنة .. إذ لم يدع الرسول ﷺ الناس فى أمر التوحيد إلى الاستدلال بالأعراض والجواهر .. فضلا عما أدت إليه هذه المصطلحات من منازعات وخصومات بين المسلمين لعدم الاتفاق على مدلولاتها وتركيباتها فأصبح لكل فرقة تشقيقات كلامية تختلف عن غيرها وظهرت الفرقة بين صفوف المسلمين [2] .

ويمكن القول بأن أصحاب هذا الرأى يغفلون العوامل التى أدت إلى نشأة علم الكلام وأيضا يهملون المهمة الدفاعية التى اضطلع بها علم الكلام والمهمة التوضيحية التى فسر بها العقيدة تفسيرا عقليا .

ولا يجوز لأصحاب هذا الرأى أن يتمسكوا بأنه لم يؤثر عن النبى ﷺ أو الصحابة الخوض فى هذه المسائل ، وذلك بالرد عليهم بأنه لم تثر فى عهده ﷺ والصحابة مثل هذه المسائل .. لذا لم يؤثر عنهم الخوض فيها ..

أيضا لا يجوز القول بأن هذا العلم بدعة .. وأن استخدام مصطلحات الجوهر والعرض وغيرهما لم تعهدها الصحابة .. يمكن الرد على ذلك بالقول إن العلوم الإسلامية لم تكن فى عهد الصحابة بل تكونت من بعدهم .. وأيضا أن هذه المصطلحات من أجل فهم العلم وتفسيره .. ولكل علم مصطلحاته كالحديث والتفسير والفقه وغير ذلك من العلوم ، فلا غضاضة فى استخدام تلك المصطلحات .

وعلى كل ، فنحن لا نتتبع كل الآراء المعارضة والرد عليها .. إنما يهمنا الإشارة إلى بعضها لبيان موقف المعارضين .. وبيان أن المعارضة المطلقة لعلم الكلام وأنه محرم فى ذاته أمر عسير لا يمكن قبوله بإطلاق .

---

(١) الأشعرى ، استحسان الخوض فى علم الكلام ، ص ٣ ، ٤ ورد الأشعرى على هذه الحجج وغيرها .

(٢) السيوطى ، صون المنطق ، جـ ١ ص ١٤٢ .

لذلك نجد فريقا توسط بين المعارضة المطلقة والتأييد المطلق لعلم الكلام وهؤلاء يميزون بين موضوعات علم الكلام .. فمنه الكلام المحمود ومنه الكلام المذموم .. وأيضا من حيث المشتغلين به والممنوعين من الاشتغال به .

والكلام المحمود هو المباحث الخاصة بإثبات الواجب لله تعالى وصفاته والنبوة والمعاد على قانون الإسلام .. وهذه المسائل أصل العلوم الشرعية وأساسها وهى تفصيل الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر على الإيقان والإتقان .

وهذه المباحث المذكورة لتقوية الكتاب والسنة لا لمخالفتها فلا حرمة ولا كراهة فيها .. بل هى فرض . فمعرفة هذه المباحث على وجه الإجمال فرض عين على كل مسلم وعلى وجه التفصيل من فروض الكفاية .

وأيضا فيه حراسة العقيدة على العوام .. وحفظها عن تشويشات المبتدعة وهذه من فروض الكفايات .. ولقد رأى الغزالى أن دراسة الكلام من فروض الكفايات كالقيام بحراسة الأموال وسائر الحقوق كالقضاء والولاية وغيرهما .. وليس فى مجرد الطباع كفاية تحل شبه البدعة ما لم تتعلم .. فينبغى أن يكون التدريس فيه من فروض الكفايات .. لكن ليس من الصواب تدريسه على العوام كتدريس الفقه والتفسير فإن الكلام مثل الدواء ، والفقه والتفسير مثل الغذاء ، وضرر الغذاء لا يحذر وضرر الدواء محذور .

أى أن علم الكلام مباح عند الحاجة إليه فى إزالة الشكوك فى أصول العقائد وانزود عن الدين ضد شبه المبتدعين ورد حججهم والكشف عن أمور مخالفة للسنة فلهجوا بها .. وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها .. فأنشأ الله سبحانه وتعالى طائفة المتكلمين وحرك دوافعهم لنصرة السنة المأثورة بكلام مرتب يكشف عن تلبيسات أهل البدعة المحدثة على خلاف السنة المأثورة .. فمنه نشأ الكلام وأهله [1] .

---

(١) الغزالى ، إحياء علوم الدين ، جـ ١ ص ٩٧ - ٩٩ ، وطاش كبرى زادة ، مفتاح السعادة ، جـ ٢ ص ١٥٧ - ١٦١

وعلى هذا فإن علم الكلام مباح عند الحاجة .. ويجب أن يؤخذ منه بقدر الحاجة وأن يقتصر فيه على الجلى الظاهر وعدم التعمق فى الأبحاث والتفريعات .

أما المذموم من الكلام .. فهو الكلام المخالف للكتاب والسنة كإدخال مسائل لا توافق الكتاب والسنة أو إثبات مسائل على وجه لا يوافق الكتاب والسنة (١) .

ويذكر التفتازانى فى شرحه على العقائد النسفية طوائف أربعة تمنع من الاشتغال بعلم الكلام وهى تمثل الكلام المذموم :

الأولى : من هو متعصب يقصد به ترويج مذهبه فيحرم لذلك تحقيق الحق فى مطالبه .

الثانية : من لم يرزق فطنة تفى بتحصيل اليقين فنظره فى مباديه يفضى إلى التشكيك فى قواعد الدين فعليه أن يتسم بسمة العاجز .. ويتدين بدين العجائز .

الثالثة : من هو معوج فى الدين مخطىء طريق اليقين .. مغرضه من الاشتغال بمقاصده والتمكن من إبطاله ورده .

الرابعة : من يتوغل فى الخوض فى الحكمة فيقع فى ظلمات الفلسفة فربما يعجب بفكره ورأيه والحق من ورائه (٢) .

وعلى هذا فإن علم الكلام عند هؤلاء ليس محمودًا لذاته أو مذموما لذاته بل هو كما يقول الغزالى : « إن فيه منفعة وفيه مضرة فهو باعتبار منفعته فى وقت الانتفاع حلال أو مندوب إليه أو واجب كما يقتضيه الحال وهو باعتبار مضرته فى وقت الاستضرار ومحله حرام » (٣) .

* * *

(١) طاش كبرى زادة ، مفتاح السعادة ، جـ ٢ ص ١٥٧ - ١٥٨ .

(٢) التفتازانى ، شرح العقائد النسفية ، ص ١٨ - ١٩ .

(٣) الغزالى ، إحياء علوم الدين ، جـ ١ ص ٩٧ .

● أهمية علم الكلام فى العصر الحديث :

لنا أن نتساءل عن أهمية دراسة علم الكلام فى العصر الحديث ٠٠ وهل لا يزال له دور من حيث إنه علم يهدف إلى بيان العقيدة وإثباتها والدفاع عنها بالأدلة العقلية ضد شبهات الخصوم والمخالفين ؟ وهل يقف دوره عند الزمن الذى كانت فيه هذه الفرق وقيامه بالرد عليها ٠٠ أم يتعداه إلى زماننا الحاضر والمستقبل وهل كان ابن خلدون (المتوفى عام ٨٠٨ هـ) على حق حين أسرف فى تفاؤله ؟ حين ذكر أنه لم تعد الحاجة إلى علم الكلام « إذ الملحدة والمبتدعة قد انقرضوا والأئمة من أهل السنة كفونا شأنهم فيما كتبوا ودونوا ٠٠ والأدلة العقلية إنما احتاجوا إليها حين دافعوا ونصروا »[1] وإذا كان هناك ضرورة لدراسة علم الكلام فى العصر الحديث فعلى أى نحو يجب أن تكون عليه الدراسة ؟

كل هذه الأسئلة يمكننا أن نجيب عليها من خلال عرض موقفنا من علم الكلام فى العصر الحديث ٠

يمكن القول إن الفكر الإنسانى عموما سلسلة متصلة الحلقات يتصل فيها الماضى باحاضر بالمستقبل ٠٠ وتزداد هذه الصلة وثوقًا إذا كان موضوع ذلك الفكر يتصل بالعقيدة ٠٠ وعلم الكلام من حيث موضوعه ٠٠ يبحث فى أمور العقيدة ويمثل تراثا فكريا دينيا ٠٠ ويبين ما قام به الأسلاف من تدليل على العقائد الدينية والرد على الزنادقة ٠٠ فلا غنى عن دراسة ذلك الجانب التاريخى لنشأة علم الكلام ٠٠ لكن يجب ألا نقتصر على ذلك الجانب التاريخى بل نتعداه لأن المقصود بتلك الدراسة فى العصر الحاضر ليس أن نبعث تلك المشكلات الكلامية من مرقدها بل يجب أن ننظر إليها نظرة نقدية ٠

وهذه النظرة النقدية تعيننا على وضع قواعد عامة وأسس لإقامة علم الكلام (علم كلام جديد) يفى بحاجات العصر ومتفقا مع معطياته ٠

وإذا نظرنا إلى موضوع علم الكلام فإنه يتناول قضايا العقيدة ٠٠ وهذه

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٣١

القضايا ليست آنية وزمانية فحسب بل هى قضايا عامة لا تخص زمان بعينه ٠٠ فهى تقوم على العلاقة بين الله والإنسان ولا بد من تصور بشرى لهذه العلاقة بين الإله المعبود والعبد العابد لله تعالى ٠٠ وإذا كان علماء الكلام قدموا تصوراتهم وفهمهم لهذه العلاقة فهذه التصورات كانت قائمة على العلم السائد فى عصرهم ولا شك أن دائرة العلم قد توسعت والتطور العلمى قد حدث فى عصرنا الحالى واتسعت نتيجة لذلك معرفة الإنسان بنفسه وبالعلم الطبيعى ٠٠ وبذا تتغير مفاهيمنا وتصوراتنا لتلك العلاقة تبعا لتطور العلم ومعطياته ٠

ونزيد ذلك الأمر وضوحا فنقول : إنه يجب أن يتغير منهجنا فى تناول الموضوعات عن منهج المتكلمين فعلى سبيل المثال : إذا كنا بإزاء إثبات وجود الله تعالى بالأدلة العقلية فإن طبيعة ذلك أو تلك الأدلة تختلف عما كانت عليه فى أيام المتكلمين ٠٠ فقد بنى المتكلمون أدلتهم على نمط الاستدلال الفلسفى المنطقى واستخدام الأقيسة العقلية ٠٠ أما طبيعة الأدلة فى عصرنا فهى تقوم على الواقع والتجربة والعلم ٠٠ وقد كتب أحد الباحثين المعاصرين مبينا طبيعة علم الكلام الجديد وحقيقته فقال : « تتلخص حقيقة علم الكلام الجديد فى أنه استجلاء حقائق الدين بالأدلة التى تطمئن الذهن الجديد والعقلية الجديدة ٠٠ وتوصل التعاليم الإسلامية بأحدث أساليب الاستدلال الملائمة للعقل الجديد ٠٠ فما هو العقل الجديد ؟ ٠٠ إن مدلول هذه الكلمة مدلول مرادف لكلمة العقل العلمى أو العقلية العلمية ٠٠ والعقلية العلمية عقلية مهمتها الحقائق » (١) .

وهذا المنهج الجديد هو منهج قرآنى ٠٠ فقد سبق الإشارة إلى ذلك عند الحديث عن القرآن كعامل لنشأة علم الكلام ٠٠ وقد اتضح لنا دعوة القرآن إلى الاستشهاد بالحقائق الملموسة التى يقوم عليها العلم وتحديده لمناطق البحث ٠٠ وأن هناك أمور لا توجد داخل إدراك الإنسان ٠٠ وطالب بالإيمان الإجمالى بأمور الغيب دون تفصيل فيها وذلك: لأن العلم الإنسانى محدود وليس علما مطلقا ٠

---

(١) وحيد خان ، قضية البعث الإسلامى ، ص ١٠٢ - ١١٨ المترجمة للعربية ٠

وقد نجد أيضا ذلك المنهج القرآنى فى الاستدلال عند بعض المتكلمين خاصة الأوائل الذين بنوا استدلالاتهم على الوقائع المحسوسة ثم الانطلاق منها إلى المعقول ·

لكن هذا المنهج كان يستوعب العلم السائد فى عصره ·· وعلينا أن نوسع دائرة المنهج بحيث تتسع لعلوم العصر والأخذ بنتائج تلك العلوم ·· وإذا كان علم الكلام يقوم بالرد على الملحدين فإن سمة الإلحاد فى هذا العصر هى العلم ·· فهو إلحاد باسم العلم ·· فعلى علم الكلام أن يخوض دائرة العلم المعاصر وذلك ليستوعب سلاح الخصم ويتفوق عليه ·

وإذا كان ذلك يخص منهج علم الكلام فإن هناك أمرا يخص موضوعات علم الكلام·· حيث إن المتكلمين قد خاضوا فى مسائل وتفريعات كانت وليدة عصرهم ·· وكان للمنهج الجدلى الذى اتبعه المتكلمون أثر كبير فى اتساع هذه الخلافات بينهم حتى أصبح يكفر كل فريق مخالفيه ·

وإزاء هذا ، علينا فى نظرتنا الجديدة لعلم الكلام أن نبحث حقيقة هذه الخلافات وأهميتها ·· وهذا يتطلب منا نظرة جديدة إلى المشكلات الكلامية التى بحثها المتكلمون وبيان حقيقة الخلاف وأسبابه وموضوعاته ·· وهذه الرؤية الجديدة سوف تعيننا على حقيقة تلك المشكلات ·· وحقيقة موقف المتكلمين··· وتجعلنا نستبعد الكثير من التعريفات والتفصيلات التى زادت هذا العلم تعقيدا ·· وبذا نخلص العلم من تلك التعقيدات التى تجعله عسير الفهم صعب المنال ·· وهى ليست أصلا من أصول الدين ولا تخدم العقيدة ·· ويكون فى إمكاننا تقديمه بصورة سلسة ميسرة للمؤمن المعاصر ·· وتقديم فهم صحيح لأصول العقيدة بعيدا عن كل ألوان المغالاة والتعصب التى تطفو على السطح فى عالم اليوم وتظهر بعض الدعاوى على ساحة الفكر الإسلامى المعاصر ··· ونتيجة لسوء فهم لأصول العقيدة ، وهذا يثبت الحاجة إلى دراسة علم الكلام لبيان الفهم الصحيح للعقيدة وأصولها ·· حيث إن هذه الدعاوى تتصل بالعقيدة ، وعلم الكلام تشغل مباحثه تلك الموضوعات ·

وفى الحقيقة ، إن دراسة علم الكلام توقفنا على أهمية النظر العقلى فى الدين وحدود استخدامه ، وترسم لنا منهجا قويما ٠٠ لتحقيق ذلك ٠٠ وفى الواقع أنه قد كان لغياب النظر العقلى أثره البالغ فى تخلفنا وجمود الفكر وضعفه ٠٠ وواقع الأمة الإسلامية يشهد بأنها عاشت أمجد أيامها وعزتها وقوتها فى عصور ازدهار العقل ٠٠ وأنها عاشت أحلك أيامها وضعفها فى عصور غياب العقل ٠٠٠ إذ أنها استطاعت بالاستعانة بالعقل أن تفهم الدين فهما صحيحا ٠

وإذا كنا الآن ننادى بضرورة أن يكون لنا فلسفة خاصة ونشكو من غياب ذلك عن ساحة فكرنا المعاصر ٠٠ فإنه مما لا شك فيه أن تراثنا الكلامى يمثل جانبا هاما فى صياغة تلك الفلسفة وأن ننظر فى ذلك التراث ونأخذ منه ما يصلح ٠

obeikandl.com